## عربية القرآن وتسلسل النزول



▶و ُلد الإسلام على خطّ التوحيد، واندرج في سياقه، وكان يؤثر في الواقع المحلي من جبهتين: الدّ ِين والثقافة، نتحسس ذلك من خلال المقاومة التي أبداها الناس تجاه القرآن، ويمكن أن نلحظ من جانبهم مقاومة دينية في سبيل الشرك (تعدد الآلهة) واحترام الأجداد، وهما أمران انتقدهما القرآن. ويمكن أن نلحظ كذلك، مقاومة ثقافية، لأنّ الإسلام أراد أن يعطي للشعب العربي كتابه المقدّس، ونبيّه، الذي يعلّ َم الناس الدّ َين والأخلاق، ويكون بمقدوره أن يشفع لهم يوم القيامة، وهو ينطق في الأصل عن الوحي الإلهي، وقد تجلت مقاومتهم الثقافية في تكذيب النبيّ والإعراض عنه ومحاربته.

كان لابد ّ للإسلام من قاعدة يستند إليها، لكي يقد ّم رؤيته، تلك الرؤية التي تقدم الإله متوح ّدا ً في ذاته، وتصوغ الوحي صياغة أخيرة، وبحسب ما قد ّمنا، تقرأ الوجود قراءة جديدة فكان القرآن عربيا ً. ومن الم ُستبعد أن يكون القرآن عربيا ً بمعنى عربية مفرداته وألفاظه، في مقابل أعجمية ألفاظ التوراة والإنجيل. إن ّ عربية القرآن رؤيته التي نسج لحمتها وسداها الواقع التاريخي الذي نبع الوحي منه، رؤيته التي قد ّمتها ثقافة ذلك الواقع، وتكو ّنت عناصرها من مفاهيمه، لذلك لم يسم ّ ِ القرآن نفسه عربيا ً إ ّلا عندما كان يقد ّم قراءته العربية، لتكون ه ُوي ّة ً له.

## لنتابع الوحي حسب نزوله، ونراقب "عربية القرآن":

- أو ّل ذكر لعربية القرآن جاء في "سورة طه"، وهي (تس 42) في تسلسل النزول، وفيها قصّة موسى وآدم، وهي تركّز على الوعيد؛ وعيد الكافرين: (كَذَلَلِكَ نَقُصّ ُ عَلَيَدْكَ مَنْ أَنَّبَاءَ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيَدْنَاكَ مَنْ لَدَ ُنَّاَ ذَكُرًا) (طه/ 99). (وَكَذَلَكَ أَنَزْزَلَدْنَاهُ قَبُرْآنًا عَرَبِيّّاً وَصَرَّ وَنْنَا فَيِهِ مَنَ الدُّوَعَيِدِ لَعَلَّهَ مُمْ يَتَّقَوُنَ أَوْ يُحْدَثُ لَهُمْ ذَكَرُا) (طه/ 113). أي إن ّ في القرآن قصص من سبق، قصص الأُمَّم السالفة وقد قد ّمها بصياغة عربية.

- ثمِّ تلاه ما جاء ما جاء في "سورة الشعراء" (تس 44)، وهو وصف للقرآن: (و َإِ نَّ َهُ لَ َتَ نَ ْزِ يلُ رَ رَبِ ل رَبِ ّ الْهُ عَالَ مَ بِينَ \* نَزَلَ بِهِ الرَّ ُوحِ ُ الأَم ِينُ \* عَلَى قَلَاْبِكَ لَ تَكَوُّونَ مَ نَ الْهُ مُنْذَرِ يِنَ \* بِلَهَ سَانٍ عَرَ بِيَّ ٍ مُبرِينٍ \* و َإِ نَّ َهُ لَ فَ بِ رُ بُرِ الأَوّْ َلَ بِينَ ) (الشعراء/ 192-196). فالقرآن جاء من ا□ بوساطة جبريل، جاء بلسان عربي، برؤية عربية، وقد سبق لمحتواه (الكلام الإلهي) أن ورد في الكُتُب السابقة.
- في "سورة يوسف" (تس 49) تكون رؤية القرآن العربي أحسن الرؤى، وهو يسرد قصّة يوسف: (إِنَّا أَنهْزَلهْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعهْقِللُونَ \* نَحهْنُ نَقُصٌّ عَلَيهُكَ أَحهْسَنَ الهْقَصَصِ بِمَا أَو ْحَيهْنَا إِلَيهُكَ هَذَا) (يوسف/ 3-2).
- في "سورة الزمر" (تس 57) يشتمل القرآن على أنواع مختلفة من الأمثال، والمثل عبارة عن قول في شيء، يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة، ليبيّن أحدهما الآخر ويصوّره. ويشتمل القرآن على الأمثال بهيئة عربية: (وَلَـَقَد ْ ضَرَب ْنَا لَـِلنَّاس فِي هَذَا الـْقُر ْآن ِ مِن ْ كُلِّ َ مَثَل ٍ لـَعَلَّهُمْ ْ يـَتَذَكَّ رَوُنَ \* قُر ْآنًا عَرَبِيًّا غَيـْرَ ذِي عِوجَ ٍ لـَعَلَّهُمْ ْ يـَتَّ َقُونَ) (الزمر/ .(27-28
- في "سورة فصلت" (تس58) توضحت آيات الكتاب (الرسالة، الوحي) وانكشفت بوصفه قرآنا ً عربيا ً، أي إنّ طريقة تفصيل آياته وعرض مكوّناته، طريقة أو هيئة عربية: (كَـِتَابُ فُصِـّلاَت° آيَاتُهُ قُر°آناً عَرَبِيّاً لـيَقَو°م ٍ يـَعْلاَمُونَ) (فصلت/ 3).
- في "سورة الشورى" (تس 60): (وَكَذَلَكَ أَو ْحَيـْنَا إِلَيـْكَ قُر ْآنًا عَرَبِيًّا لَيتُنـْذِرَ أُمّّ الـْقُررَى وَمَن ْ حَوْلـَهِاَ) (الشورى/ 7).
- في "سورة الزخرف" (تس 61): (إِنَّاَ جَعَلَاْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيَّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (الزخرف/ 3).
- في "سورة الأحقاف" (تس 64) لم يكن الرسول إسّلا واحداً من الرسّمُسل، وقد سبقه موسى. والقرآن توثيق لما سبق إسّلا أنسّه جاء عربياً: (قَلُلْ مَا كَنُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرسّمُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يهُفْعَلُ بِي) (الأحقاف/ 9). (وَمَنْ قَبْلُهِ كَيتَابُ مهُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كَيتَابُ مُصَدِّقُ لِيسَانًا عَرَبِيسًًا) (الأحقاف/ 12).
- في "سورة النحل" (تس 69)، عندما اتّ ُهم الرسول بأنّه يأخذ ما يقوله عن إنسان أعجمي، رد التهمة بالتأكيد على عربية القرآن، وأنّه ليس من مصدر أجنبي: (وَلَـَقَـد ْ نَع ْلَـَم ُ أَنَّـه ُم ْ يَق ُول ُونَ إِنَّـمَا ي ُعَلَـم ُه ُ بَشَر ُ لـِسَانُ السَّنذِي ي ُلم ْحرِد ُونَ إِلَي ْه ِ أَع ْجَمـِي ّ ْ وَهَذَا لـِسَان ُ عَرَبِي ۗ ْ مُبـِين ُ) (النحل/ 103).
- في "سورة الرعد" (تس95): (وَكَذَلَلِكَ أَنَنْزَلَنْنَاهُ حُكَنْمًا عَرَبِيَّا وَلَنَئِنِ اتَّبَعَتْ أَهَوْاَءَهُمْ بِعَنْدَمَا جَاءَكَ مِنَ النُّعِلِاْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهَ مِنْ وَلَيِّ وَلا وَاقٍ) (الرعد/ 37). والحكم، وهو القضاء، موصوف بالعربي، أي من بيئة العرب، وعلى نهجهم.
- نخلص من استعراض ورود "عربية القرآن" في القرآن، إلى أنّ الوحي أكّد ه ُويّته العربية في مراحله الأولى، أي في العهد المكي خاصّة، وبلغ سبع مرات، فلما جاء العهد المدني كانت عربية القرآن مسألة مسلّّمَة؛ ولذلك ذكرها مرة واحدة فقط في "سورة الرعد".
- لقد ابتدأ الوحي بعربية القرآن وجعلها مبدأ من مبادئه، تناسباً مع تاريخيته، وانسجاماً مع معطيات الثقافة العربية، وتلاؤماً مع القوم الذين نزل فيهم وخاطبهم. قال ابن خلدون: "وقد واقع

الوحي قوما ً مهي ّ َعُين له، وأنسّهم أسرع قبولا ً للحق ّ والهدى، لسلامة طباعهم عن عوج الملكات، وبراءتها من ذمم الأخلاق، إسّلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة، المتهيئ لقبول الخير، ببقائه على الفطرة الأولى".

وكان الوحي أيضا ً، يمثسّل للعرب فرصة للملك، بحسب ابن خلدون أيضا ً، والسبب في ذلك "أنسّهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأُمسّم انقيادا ً بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة، فقلما تجتمع أهواؤهم، فإذا كان الدسّين والنبوة أو الولاية، كان الوازع لهم من أنفسهم".◄

ملاحظة:

تس: اختصار لـ(تسلسل).

المصدر: كتاب كلام ا□ الجانب الشفاهي من الظاهرة القرآنية